

تاريخ الموسيقى الأندلسية في الجزائر

بن سنوسي كمال.
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة زيان عاشور الجلفة.

1- نشأة الموسيقى الأندلسية في الجزائر :

تعتبر الموسيقى المسماة الأندلسية * واحدة من الامتدادات التي تفرعت عن الموسيقى العربية بمفهومها العام ، ويعتبر الحديث عنها بمثابة الحديث عن لون خاص وعين من ألوان الموسيقى العربية ، ومن ثم فمن الطبيعي أن تربط هذه الموسيقى العربية عموما ، وإن تكن قد تفردت بخصائصها ومميزاتها أسهمت عوامل شتى في خلقها¹.

كانت الموسيقى الأندلسية منبعها في الشرق العربي ابتداءً من القرن الأول الهجري عندما انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية وتوسع في الشام والعراق وأخذ له دمشق كعاصمة ثم بغداد .

كان الطرب في أول العهد عربيا محضا لا دخل للطرب الأجنبي فيه، نشأ من قدم الزمن في مكة والمدينة. وعند احتكاك المسلمين بأهل فارس تغير بعض هذا الغناء وأخذ شيئا فشيئا طابع يسمى في الشرق بالموشحات².

غادرت الموشحات بغداد باكرا وجابت عواصم المغرب العربي وعندما وصلت إلى الأندلس تأثرت بالبيئة والتقاليد والأخلاق الجديدة المحلية وانفصلت في الفروع لا في الأصول عما كان موجودا في الشرق³.

وقد انتقلت الموسيقى العربية عبر العصور إلى الأندلس واحتكت بالأجانب وعرفت درجات الرقي ثم الانحطاط بعدما دخل عليها التبديل والتغيير بالإحسان مرة وبالنسيان

مرة أخرى ، فجالت وراجت وانقلبت أوضاعها ومسها ملمس الحضارة الإسلامية من التطور صاعدة معها في الازدهار وهابطة معها في الاضمحلال والانحطاط وناهضة من جديد برقي ومسايرة سير التقدم .

اهتم الخلفاء بالموسيقى في العصر الأندلسي اهتماما كبيرا عندما فتح بنو أمية الأندلس انبثقت بها فجر المدينة والتحضر ، وأصبحت بفضلهم مضرب الأمثال في العلوم والفنون ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً لأساطين العلماء ، كما كانت اشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات.

كان اهتمام الخلفاء بالثقافة والعلوم اهتماما كبيرا وفي طليعة ذلك الموسيقى ، حيث نقلت العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ثم افتننوا فيه وزادوا عليها .

إن الموسيقى في الأندلس انتشرت في جميع أوساط المدن عند العرب واليهود والنصارى في طليطلة واشبيلية وقرطبة وغرناطة كما توسعت بالمبادلة مع شمال إفريقيا .

في ذلك العهد شهدت الموسيقى الأندلسية انقلابا عظيما بفضل الوحدة الإسلامية في المغرب وأصبحت شعوب الأمة الإسلامية تتفاهم بواسطة لغة تؤثر في الشعور وتعبّر عن عواطف الشرق والغرب معا من دون تعلم لغة جديدة ، هي لغة الفن والأدب ، التي تصل بفصل جمالها الفتان ما بين الفارسي والتركي والكردى والحبشي والرومي والمغربي والعربي من دون رباط قديم⁴ ، وهي كذلك لغة الموسيقى التي ساعدت على اختلاط الأجناس بإبداع سهل المنال وسريع الفهم يتسع للفطرة الأدمية .

لم تكن الموسيقى في الأندلس تقتصر على طبقة من الناس كما كانت العصور السابقة في الشرق ، وإنما في الأندلس خالفت تلك القاعدة حيث كانت مباحة لعموم الناس على مختلف مراكزهم الاجتماعية ، ومن بينهم محمد الثاني الملقب بالمهدي الذي كان يتجاوب في قصره أصوات مئات العيدان والمزامير⁵ .

انشطرت بلاد الأندلس عدة أشطار تحت حكم ملوك الطوائف الذين أقاموا حواضر ملكهم في مختلف الطوائف الذين أقاموا حواضر ملكهم في مختلف المدن ، فاتخذ بنو حمود مالقة (1057-1016م) ، والجزيرة الخضراء (1058-1039م) ، وملك بنو عباد اشبيلية (1091-1023م) ، وحكم الزيرية في غرناطة (1090-1012م) ، وبنو جهور في قرطبة

(1031-1068م) ، وبنو ذي النون في طليطلة (1185-1035م) ، والعامريون في بلنسية (1021-1085م) ، والتنجيبون في سرقسطة (1019) ، وبنو هو (1039-1044) ، والمجادون في دانية (1017-1075) .

كان يسر هؤلاء الملوك تكريم العلماء والأدب وجعل قصورهم منازل للشعراء والموسيقيين ، وكان بنو عباد الإشبليون الذين حكموا قرطبة ردحاً من الزمن أعظم من ملوك الطوائف حيث اهتموا بالأدب أكثر من غيرهم ، وقد جعل المعتمد الملك العبادي قصره (1068-1091م) ملتقى للرجال وموسماً للشعراء وكان هو أيضاً مغنياً وضارباً على العود وابنه عبيد الله الرشيد ملحنًا ومغنياً ومثقفًا وشاعرًا محسنًا يحذق الضرب على العود والمزهر ، كما عرف سكان مالقة تعلقهم بالموسيقى في العام 1015م فقد كانت تطرق الأسماع أصوات العود .

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر بدأ المسيحيون يهددون دول الإسلام بخطر عظيم، وعلى إثر سقوط طليطلة في 1085م طلب الأندلسيون من مرابطي الشمال يد العون ، فدخل هؤلاء المغاربة الأندلس في سنة 1087م ودحروا جيوش النصارى في واقعة زلاقة قرب بطليوس ، وكان للمرابطين الحماة ثمنهم وهو الأندلس لتصبح شبه الجزيرة جزءاً من إمبراطورية مراكش ، وكان الأسياد الجدد متعصبين والفقهاء عندهم ذو سلطان عظيم⁶.

ثم ظهرت في إفريقيا عام 1130م قوة جديدة هي الموحدون ، حاربوا المرابطين في مراكش وفي الأندلس (1144-1145م) وغلبوهم ليحكموا الأندلس وشمال إفريقيا حوالي قرن من الزمن ، وظلت الدولة الموحدية تمثل قوة سياسية وقوة عسكرية ضاربة في غرب البحر الأبيض المتوسط في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يعاني وطأة الحروب الصليبية المدمرة والاسترداد الإسباني المطرد⁷.

تميز الموحدون على أسلافهم المرابطين بالميل الشديد إلى العلم والثقافة والفن بصفة عامة وباحترام وتقدير ، وتألقت في زمانهم أسماء أعظم بناة الحضارة العربية كابن طفيل وابن رشد ... وغيرهم .

استمر هذا الوضع حاله إلى أن أعلن بنو حفص استقلالهم في تونس سنة 1228م لتبدأ مرحلة الضعف تدب في الموحيدين ، وكانت هزيمة الناصر في معركة حصن العقاب أمام النصارى

في الأندلس سنة 609م 1212م أحد الأسباب القوية في ضعف دولة الموحدين وتفككها⁸. حيث لم تكد سنة 1230م تحل حتى كان المسيحيون قد طردوهم من الأندلس وأعادوهم إلى موطنهم شمال إفريقيا .

أدت هذه الهزيمة إلى تصدع البيت الموحي الذي شيده عبد المؤمن بن علي ، ومن جهة أخرى اعتبرت هذه الهزيمة بمثابة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام في الأندلس ، حيث زادت هجمات الممالك النصرية في إسبانيا على دولة الموحدين بعد معركة حصن العقاب ، إذ استطاع النصارى تحقيق انتصارات كبيرة على الجيوش الموحدية خاصة عام 633هـ - 1235م هذه الانتصارات كان لها وقعها الخاص في انهيار دولة الموحدين وأثرت نفسيا على عقول المسلمين ورسالتهم وجعلتهم غير قادرين على إيقاف الزحف المسيحي في إسبانيا منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثلث عشر الميلادي⁹، على أن هزيمة الموحدين لم تكن خاتمة العرب في الأندلس .

فقد أوت غرناطة فلولهم وبقيت فيها أسرة بني نصر (1232هـ - 1492م) ترفع راية الإسلام خفاقة قبالة مسيحيي شبه الجزيرة¹⁰.

بعد سقوط تلك المدن تدريجيا وفي فترات متباعدة أخذت طريقها إلى مسقط رأسها ولكن بعدما أخذت وجهاً آخر يختلف عن المصدر الأول اختلافاً متذكراً بحيث :

- رجع أهل اشبيلية بما عندهم من التراث إلى تونس في طريقهم إلى سوريا .
- ورجع أهل قرطبة إلى الجزائر وأهل غرناطة إلى المغرب الأقصى وتلمسان .

وبعد سنة 1492م تشتت الموسيقى مع أناسها وافترقت ولكنها وجدت أوطاناً تساعدتها على بقائها مع كثير من الحزن والشجون والتأسف على ما مضى فحطت رحالها في تلمسان والجزائر وقسنطينة ومدن السواحل مثل مستغانم وتونس وشرشال وبجاية وعنابة .

لقد رحبت أرض الجزائر بأهل الأندلس المطرودين من بقاعهم كما كانت ترحب بهم قبل طردهم ما بين القرن العاشر والخامس¹¹.

والجدير بالذكر أن الموسيقى الأندلسية تفرعت في الأندلس بين الإمارات والممالك ، كما تفرعت بين المغرب والجزائر وتلمسان .

كان شمال إفريقيا بأكملها متأثراً تأثراً عميقاً بفنون الأندلس على الأخص وقد اعترفوا صراحة بالأثر الذي خلفه «ابن باجة»¹² في علم الموسيقى التركية العثمانية من حيث الأداء الصوتي والموسيقي ، رغم أن أساس اللحن لا يتغير. وقد كان للمغرب فضل كبير في المشاركة في المؤتمر الأول للموسيقى العربية بالقاهرة سنة 1932م .

فمن أبرز الفنانين المعاصرين المرحوم عمر الجعدي الذي كان محلّ عناية جلالة المرحوم محمد الخامس حيث يقيم بقصره ، «وأنشئت جمعية هواة الموسيقى الأندلسية سنة 1937م، وكان الشيخ الأستاذ الحاج إدريس بن جلول الفضل الأكبر في ذلك وفي حسن تسيير هذه الجمعية ، وفي جمع التراث الموسيقي الأندلسي ، حيث أنجز تسجيل ثماني نوبات من مجموع الإحدى عشرة ، وقد استقى أوفر نصيب من معلوماته في الموسيقى المغربية عنه»¹³.

إن الموسيقى الأندلسية تحتل مكانة خاصة في التراث الجزائري ، وتحظى باحترام كبير لدى الجزائريين ، حيث امتزج فيها دون أنواع الموسيقى الأخرى «الموسيقى البدوية والشعبية والصحراوية» الطابع الفني بالطابع الديني بعقب التاريخ ، ليعطي أنغاما خاصة .

فقد تعاطى هذا اللون الموسيقي العلماء ورجال التصوف ، وكان رواده يجمعون بين الحس الفني والوقار الذي يستمدونه من وضعتهم الدينية ، ورغم رواد هذا الفن اليوم هم فنانون فقط ، فإنهم مازالوا يطهرون في حفلاتهم بالزي المغربي التقليدي الذي تميز به رجال العلم وعليه القوم ، أي الجلباب والطربوش والبلغة في غالب الأحيان ، كما أن كلمات هذا الفن الأندلسي العريق مستمدة من قصائد شعرية صوفية شهيرة في أغلبها قبل أن يطعمها روادها بألوان شعرية أخرى تستوحي مادتها من الحياة اليومية في المجتمع الجزائري ، وتمزج بين الموعظة والمزاج ، وبين المدح والغزل الرقيق .

فالموسيقى الأندلسية قد انتشرت في مدن جزائرية وأخرى مغربية ، وللشيخ بن إسماعيل الفضل الأكبر في تأسيس جمعية موسيقية سماها الأندلسية ونشرها في مدينة وجدة .

«والشيخ مصطفى بن عبودة الذي نشرها في ندرومة والشيخان مامي وابن خوجة في مدينة سيدي أبي العباس ، والشيخ دالي عبد الكريم في الجزائر العاصمة ، وكان قبله بها المرحوم محمد المنمش التلمساني الذي كان من جملة تلاميذه الشيخ سفينجة المشهور في غناء الموسيقى الجزائرية ، والشيخ صادق البجائي في مدينة بجاية ، والشيخ رضوان

بن صاري في مدينة الدار البيضاء بالمغرب ، وأخيراً الشيخان عبد الرحمان السقال ومحمود بن صاري في مدينة وهران ويضاف إلى هؤلاء ولد الحاج الذي كان مطرب القلاوي الخاص بمراكش»¹⁴.

«هذه الموسيقى التي مرّت من ساحة هارون الرشيد إلى ساحة الأمويين في كوردو cordone بدون تغيير يذكر لكن بوجود بعض الثغرات حيث انتقلت عن طريق موجه العرب الفارين من إسبانيا»¹⁵.

يتبين لنا أن تاريخ الموسيقى الأندلسية يبقى حميماً مع عادات مدن المغرب القديمة ذات الصلة بالأندلس ، فكانوا يؤمنونها ليستوطنوا ويؤسسوا مدناً ازدهرت فيها الحضارة وترتب فيها الفن ، فأنشأوا وبنوا بمساعدة المواطنين الجزائريين وشيدوا وأضافوا في بناء تلمسان والجزائر العاصمة والبليدة وقسنطينة وبجاية .

كما أن هذا التراث الذي حمله الأندلسيون معهم عند مغادرتهم لبلاد الأندلس تلون بلون الأرض التي احتضنته ، فتدرج بين اللون الشرقي في سوريا ، واللون المغربي في كل من ليبيا وتونس والمغرب والجزائر.

ففي الجزائر تأسست مدرسة فنية تمارس الطرب وتنشد الأشعار وتتداولها مع الأندلس ، تروح وتغدو ولا تفرق بين القطرين ، حتى أصبح بين الشعبين تزاخم في الاختراع ، بتعبير يلائم أذواقهم وعواطفهم فيعبروا ويصفوا ما يحيط بهم من جمال بكلام بسيط عربي المنطق والتركيب يقرب من الكلام العادي الذي يتلفظ به الشعب وأطلقوا عليه وعلى الفن الذي يعبر عنه بكلمة العروبي ليفرقوا بينه وبين الأندلسي .

إن العروبي مقتبس من الأندلسي ولكنه لا يصل إلى كماله في الهيكل والحسن والجمال ، ولما كان أهل العروبي متأثرين بالبيئة والغناء البدوي الموجود حولهم ، رجعوا في النطق إلى النغمات السهلة البسيطة طبقاً لما كان معروفا عندهم .

ومن ذلك العصر أصبح المغنون الجدد يبحثون عن شعر جديد يناسب أذواقهم وتهتز له نفوسهم ، فظهر شعراء جزائريون مثل : ابن مسايب ، وابن التريكي ، وابن سهلة والمنداسي في تلمسان ، والشيخ ابن ذباح والشيخ عبد القادر في الجزائر العاصمة¹⁶.

فنشأ فن الرقص وهو الفن الخفيف بشعر خفيف جزائري اللهجة يكاد يكون شعبياً بعدما كان يعتمد على الفصيح أو ما يشبهه من تراث الكلام الأندلسي الشعبي ، وظهرت

الأنواع البسيطة مثل : الحوزي والزيداني والبرول والزجل مقابل الانقلابات المتفرعة من النوبة الأندلسية .

بعد خروج أهل الأندلس من ديارهم وانتقالهم إلى القطر الجزائري وشمال المغرب توسع الفن في شمال إفريقيا وبقي على حاله طيلة العهد التركي حتى احتلت فرنسا بلادنا وشرعت في السعي وراء التخريب وإدخال النسيان على كل ما من شأنه أن يدعم الشخصية الوطنية من لغة وأدب وذوق سليم وأخلاق مهذبة وحضارة راقية .

جاهد أهل الفن واجتهدوا واستمروا في بث ما لديهم من تراث ، ويقال أن المطرب الجزائري محمد المنمش قد كان يعزف الأربعة والعشرين نوبة كاملة حتى سنة 1887م فعلمها للأستاذ سفينجة الذي توفي سنة 1905م¹⁷ .

كانت هناك أربعة وعشرون نوبة في الأصل تندرج كل واحدة منها في ساعة معينة من الليل والنهار ، وقد قام رواني في دراسته للموسيقى المغاربية بضبط قائمة هذه النوبات على النحو الآتي¹⁸ :

- 1- الديل 7- غريب 13- الإعراف 19- الأصبهان الكبير
- 2- المجبنة 8- الصيكا 14- الرهاوي 20- الأصبهان الصغير
- 3- احسين 9- الرصد 15- الجاركة 21- العشاق
- 4- الرمل 10- رصد الديل 16- غريبة الحسين 22- احسين عشرين
- 5- رمل الماية 11- المزموم 17- ماية فارغ 23- احسين الأصل
- 6- رمل العشية 12- الماية 18- الزيدان 24- احسين الصبا

لكن تبعثرت تلك النوب مع مرور الزمن بسبب التشبث بالطرب الذي اعتبره بعض الناس سقوطاً للهمم ومساساً بالأخلاق الدينية .

يقول أحمد سفطي حول الموسيقى الأندلسية : « ويتطور الزمن وقلة المواصلات التي تساعد على الكتابة ، فقدت الموسيقى الأندلسية أصالتها وصفاءها مع زيادة النسيان وقلة التعليم من جيل إلى جيل، لذلك ضاعت بعض المقامات والطبوع والنوت ولم يبق بالقطر الجزائري إلا النصف ونيف»¹⁹ .

بفضل بعض الجمعيات الموسيقية التي أسسها بعض المشايخ مثل ابن تفاحي وفخارجي محمد وعبد الرزاق ويافيل ومحيي الدين الأكل بالجزائر العاصمة ، والشيخ العربي بن صاري بتلمسان ، و محمد الكرد والفرقاني وغيرهم بقسنطينة ، فأسسوا المطربية والأندلسية والغرناطية والجزائرية وسافروا إلى الخارج يشاركون في مهرجانات أوروبية والشرق العربي .

انتقلت الموسيقى الأندلسية إلى الشباب الذي أصبح يتذوقها خارج الملهي كفن منعش يدفع إلى الرقي والازدهار وأصبحت النوبات الأندلسية يتناولها الجزائريون ليستلهموا منها روحاً جديدة تبعثهم إلى اختراع شيء جديد من أصل قديم له صبغة وطنية جزائرية محضة.

3 - مدارس الطرب الأندلسي في الجزائر :

يؤكد المختصون في فن الموسيقى الأندلسية أن هذه الموسيقى واحدة من الإمدادات والروافد التي تفرعت عن الموسيقى العربية بمفهومها العام بالمغرب العربي ، وهي خلاصة امتزاج وتفاعل المعطيات الفنية التابعة من موسيقى العناصر البشرية الساكنة بالأندلس وهي : العرب ، والبربر ، والقوط ، والصقالبة .

تعتبر الموسيقى الأندلسية بالجزائر من الألوان الموسيقية التراثية الأكثر أصالة وعمقا ، وتتميز بتنوعها وغناها الفني ، وتعدد أساليبها ، وتمثل هذه الموسيقى التقليدية في الجزائر بواسطة ثلاث مدارس²⁰ : المدرسة العاصمية أو الصنعة ، المدرسة التلمسانية أو الغرناطية ، والمدرسة القسنطينية أو المألوف .

2.1 - المدرسة العاصمية أو الصنعة :

تنحدر من قرطبة ، تتسم بأسلوبها الخفيف المتهدج فيه قلق وحيوية فائقة لأنها ورثت الغناء تحت تأثير التقلبات السياسية آنذاك ، وكانت تعيش في طور الانقلابات والتبديلات من جهة وفي حالة التأثير الطبيعي من جهة أخرى .

نجد المغنون الجدد يبحثون عن شعر جديد يناسب أذواقهم وتهتز له نفوسهم ، ومن أبرز الشعراء بالجزائر العاصمة نجد : ابن ذباح ، والشيخ عبد القادر .

فمن أبرز الأشعار التي تغنى في موسيقى الصنعة نجد مثلاً زجل أبي مدين شعيب الغوتي يقول²¹ :

أَحِبُّ لِقَاءَ الْأَخْبَابِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لِأَنَّ لِقَاءَ الْأَخْبَابِ فِيهِ مَنَافِعُ
أَيَّا قُرَّةِ الْعَيْنَيْنِ تَاللهُ إِنِّي عَلَى عَهْدِكُمْ بَاقٍ وَفِي الْوَصْلِ طَامِعُ

مَتَى يَا غَرِيبَ الْحَيِّ عَيْنِي تَرَاكُمُ وَأَسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ نِدَاكُمُ
وَيَجْمَعُ الدَّهْرَ الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَيَحْظِي بِكُمْ قَلْبِي وَعَيْنِي تَرَاكُمُ

يَزِيدُ اشْتِيَاقِي كُلَّمَا مَرَّ ذِكْرُكُمْ وَأَهْجُرُ الْغَيْرَ حِينَ يَزِيدُ
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا فِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا مَغِيبُكَ عَنِّ سَمْعِي عَلَيَّ شَدِيدُ

وَتَمَلَّكْتُمْ عَقْلِي وَطَرْفِي وَمَسْمَعِي وَرُوحِي وَأَخْشَائِي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
وَتِيهْتُمُونِي فِي بَدِيعِ جَمَالِكُمْ وَلَمْ أَذْرِ فِي بَحْرِ الْهَوَىٰ أَيْنَ مَوْضِعِي
وَأَوْصَيْتُمُونِي لَا أَبُوحَ بِسِرِّكُمْ فَبَاحَ بِمَا أَخْفَى تَفِيضُ أَذْمُعِي

تَاللهُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ إِلَّا وَذَكَرَكَ مَقْرُونٌ بَيْنَ أَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ مَعَ قَوْمٍ أَحَدَتْهُمْ إِلَّا وَكُنْتُ الْحَدِيثُ بَيْنَ جَلِيسِي
وَلَا سَبْتُ لَذِيذِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ إِلَّا رَأَيْتُ خَيَالَ الْوَجْهِ فِي الْكَاسِ

2-2 المدرسة التلمسانية أو الغرناطية :

أصلها من غرناطة ، ويعتبر هذا التراث أحد الأرصدة الموسيقية الأندلسية المتميزة بالمغرب العربي ، فقد حظيت بتقدير كبير من طرف التلمسانيين ، حيث أوجدت هذه المدرسة أحسن ملجئ لها في هذه المدينة .

كما تتخذ طابعاً خاصاً يمتزج فيه الطابع الفني بالطابع الديني كون الموسيقى

الأندلسية بتلمسان تتصف بأسلوب ثقيل واسع تظهر عليه الأبهة والرونق والرصانة لأن تلمسان ورثت غناء غرناطة في ظروف مستقرة وتمت المحافظة على هذا الفن العريق ، كما يحافظ على المجوهرات بحذر شديد.

من أبرز شعراء تلمسان الذين كانوا يتغنون بشعرهم الملحون في تلمسان نجد ابن سهلة، وابن مسايب، وابن التريكي مثلا نجد شعرا ابن التريكي بعنوان شعلت نيران أكبادي يقول في هذه القصيدة²²:

شَعَلَتْ نِيرَانُ أَكْبَادِي وَأَغِييْتُ مَا نَبَكِي مَا نَفَعْنِي نَوَاحِ

طَابُوا بِالذَّمْعِ أَثْمَادِي لَوْ صَبْتُ أَنْزُورًا مَقَامَ رَاخِي نَسْتَرَاخِ

صَلَّى اللَّهُ أَغْلَى الْهَادِي

لَوْ صَبْتُ أَنْزُورًا مَقَامَ ذَاتِ بَذْرِ الثَّمَامِ يَتَفَاجَى كُلَّ أَغْيَامٍ يَنْجَلَاوَا الْهُمُومِ

هَذَا لِي كَمْ مِنْ عَامٍ مَا أَزْهَى لِي مَنَامِ مَتَوَلَّعَ بِأَمِّ أَغْلَامٍ مِنْ أَقْبَلِ الْأَنْصُومِ

بَثِّيوتُ كُحْلَ أَظْلَامٍ فَايْتِيَنَّ الْحَزَامِ حَتَّى وَصَلُوا الْأَقْدَامَ سَعْدُ مَنْ شَافَهُمْ

زَنْجِي فَاتِ الْفَرْصَادِي تَسَحَّرَ بَاغِيُونَ امْذَبِلِينَ دُغَجَ أَوْقَاخِ

وَالْغُرَّةَ يَا تَنْهَادِي مَنْ ذَاكَ الْحُسْنَ إِيْبَانَ عَلَى الْخَلَائِقِ أَصِيَاخِ

صَلَّى اللَّهُ أَغْلَى الْهَادِي

مَنْ ذَاكَ الْحُسْنَ إِيْبَانَ حَاجِبَ أَغْلَى الْأَغْيَانِ

وَاشْفَرْ هَنْدِي فَتَّانِ يَسَحَّرُ النَّاطِرِينَ

وَإِخْدُودَ أَمْنِ الْجَمَانِ رُؤْسَهُمْ بِزَهْمَانِ

وَالْوَرْدَ أَوْ بَنَعْمَانِ بَيْنَهُمْ فَاتِحِينَ

وَأَزْهَرَ مَنْ كُلِّ الْوَانِ أَغْقُودَ الْخَيْرِزَانِ

صَنَعَتْ شَاطِرَ دَهْقَانٍ رَاحَةَ الزَّائِرِينَ
أَهْلَ الْحَضَرِ وَابْنَوَادِي تَسَحَّرَ بَاغِيُونَ أَمْدَبِلِينَ دُعَجَ أَوْقَاحَ
وَأَمْرَاشَفَ يَا تَغْرَادِي عَسَجَدَ وَابْرِيزَا يَخْلُخُلُوا الْعُقُولَ الرَّجَاحَ
صَلَّى اللَّهُ أَعْلَى الْهَادِي

عَسَجَدُوا ابْرِيزَ أَفْجِيذَهَا مَطَرُزَ أَطْرِيزَ
وَالْمَرْجَانَ أَفْتَرَجِيزَ فَاتَ أَجْمِيْعَ الرَّجُوزَ
مَرْفُوعَ الشَّانِ أَغْرِيزَ مَنْ اتَّقَاتِ الْكُنُوزَ
شَفْتُو مَخْرُوزَ أَخْرِيزَ فِي سَلُوكُو يَجِيْزَ
لَهَوَاهُ الْقَلْبَ أَفْرِيزَ لَوْ نَظَرَ تَوْنُفُوزَ

أَنْبَلَعَ قَصْدِي وَأَمْرَادِي تَخَمَدَ أَشْعَالُ الْقَلْبِ يَنْطَفَأُوا اللَّحَاحَ
نَفَجِي هَمِّي وَأَنْكَادِي يَهْنَى حَالِي وَنَزِيدَ قَالَهُنَا وَأَنْشَرَا
صَلَّى اللَّهُ أَعْلَى الْهَادِي

يَهْنَى حَالِي نَزْتَاحَ بِأَلْهِنَا وَأَنْشَرَا
وَأَنْزَى النُّورَ الْوَضَّاحَ بِالشَّفَرِ نَلْمُخُو
كَنَ أَطْرَنْجَ أَوْ تَفَاحَ مَا أَزْهَرَ أَمَعَ اللَّقَاحَ
مَا ثَمَرَتْ بِهِ أَذْوَاحَ فَالذَّجَى وَضَحُو
يُظْهِرُ مَنْوَلِحَاحَ فَالْمَسَا وَالضَّبَاحَ
زَانُوا خَالِقَ الْأَرْوَاحَ فَالضُّدْرَ مَا أَمْلَحُو
ضَدَيْتَ ابْقَطَرَ أَعْدَادِي سَلَا يَخْصِيُوا أَعْقُولَ مَنْ أَمْعَانِي رَجَاحَ

تَاجِ امْرِصْغِ وَقَادِي لَبَسْتُ فَوْقَ حُلَّةٍ تَحْيِزُ فِيهَا اللَّمَّاحُ

صَلَّى اللّٰهُ اَعْلَى الْهَادِي

لَبَسْتُ حُلَّةً وَالتَّاجُ مَنْ اخْرِيرَ الذَّبَاجِ

تَضْوِي فَاظْلَامَ الدَّاجِ حُسْنُهَا مَا ابْهَجُو

مَنْهَا قَلْبِي فَاعْلَاجِ خَبَلْتُ مَلْهَجُو

دَائِمُ ابْحُسْنُ تَبْهَاجِ بِالْهَنَّا وَالْفَرَاجِ

تَسْقِي خَمْرَ التَّبْلَاجِ بِالشَّمْعِ ابْسَرْجُو

بَهْوَاهَا صَرْتُ اَنَادِي سَحَرْتُ عَقْلِي وَالْقَلْبَ طَايِرًا بِلَا جَنَاحِ

وَاخْرَمْتُ نَوْمِي وَارْقَادِي بَايْتُ نَتَلَطَّمُ كَيْفَ مَنْ اَثْقَلَ بِالْجِرَاحِ

صَلَّى اللّٰهُ اَعْلَى الْهَادِي

بَايْتُ عَنْ طُولِ اللَّيْلِ دَمَعُ عَيْنِي هَطِيلُ

كَادُونِي كَمْ مِنْ ابْسِيلِ وَالزَّبَى وَالتَّلَالُ

صَرْتُ امْهَوُلُ تَهْوِيلُ مَا وَجَدْتُ السَّبِيلُ

نَنْظُرُ فَالْحَمْلُ اَثْقِيلُ الْمَجَابِدُ اطْوَالُ

اغْرِبُ اَوْصَرْتُ اَنْحِيلُ يَا غَذَابَ الدَّلِيلُ

يَا مَنْ بِكَ التَّوَسِيلُ فَيَذْنِي بِالنُّوَصَالُ

يَا رَبَّ قُوْرَادِي وَاجْمَعْ شَمْلِي بِالنَّبْهَا يَزُولُ الْجِرَاحُ

يَبْرَا ضُرِّي وَافْسَادِي نَبْلَغُ قَصْدِي يَا مَنْ اَنْشَأَ هُبُوبَ الزِّيَاحُ

صَلَّى اللّٰهُ اَعْلَى الْهَادِي

2.3 - المدرسة القسنطينية أو المالوف :

يرجع أصله إلى التأثير العثماني والذي يعود إلى مدينة اشبيلية ، ونسب المالوف كذلك في تونس وليبيا ،

فالموسيقى القسنطينية التي لقبت باسم المالوف هي مزاج بين الشرق والغرب ويظهر عليها تأثير المالوف التونسي المتبادل والزرنة التركية العسكرية ، وما وجدته في الأوساط المحلية .

«وأخذوا الكثير من موسيقاهم وطريقة غنائهم لكنهم أحبوا كثيراً الموسيقى الصامتة التي لا يرافقها غناء أو إنشاد شعري ، حتى أن أشهر علماء الموسيقى الأتراك وضعوا نظاماً وقانوناً خاصين بالتأليف الموسيقي»²³ .

تتميز الموسيقى القسنطينية بأسلوب أخف سريع فيه منوعات أخرى ، فالمالوف لم يتبع هيكل أو خطة واحدة بل تنوع أخذ أساليب خاصة ورونقاً لم يوجد في غيره ، فلا هو مالوف تونسي ولا هو موشح شرقي .

كذلك نجد المغنين في قسنطينة يتغنون ببعض أشعار الشعراء الشعبيين مثلاً : الشيخ عبد المولى الذي يقول في أحد أشعاره²⁴:

يَا قَوْمَ كَيْفَ الْاِخْتِيَالُ الْخَلَّ جَفَانِي

أَنَا نَتَّبِعُ فِي الْغَزَالِ أَحْمَدَ نَاظِرَ عَيْنِي

مَنْ جِجَلْ خَرَجْنَا عَشِيَا وَرَكَبْنَا عَلَى ظَهْرِ الْبَحَارِ

وَقَلَعْنَا بِرِيحِ سَخِيَّةٍ لَنْ جِينَا عَلَى زُوسِ الْأَمَارِ

أَكْثَرُ الرِّيحِ ذَاكَ الْغَشْيِ لَزَعَاءِ الْبَحْرِ يَقْدَحُ النَّارِ

لَلْقُلِّ مَا طَلَقَتْ الدُّخُولُ وَاشْتَدَّتْ بِنَا الْوَيْلُ

وَاللّٰهُ لَا غَيْمَ يَنْزُولُ لَا مَرْسَىٰ فِي ذَا اللَّيْلِ
قَلْنَا نَوْطِيُو الْقُلُوعَ حَتَّى لَشَطَرِ اللَّيْلِ

هَذَا هُوَ زَجَلٌ يَا مَنْ يَفْهَمُ صِغْتُ عَلَى الْبُحُورِ وَالْخَلَائِصِ
عَاشِقُ الْأَدِيبِ وَفَاهَمَ مَتَوَلَّعٌ بِجَمِيعِ الْمَرَاسِمِ
وَالسَّلَامُ لِقَرَاهُ لَلِّي يَفْهَمُ وَالَّذِي بِحَالِي يَقَاسِي
أَنَا عَبْدٌ مَوْلَهُ جَزَعَتْ الْحَمَامُ بَدَعُوا اللَّهَ يَشِيرُ

لقد كان وجود طبقة من الهواة بل والعشاق لهذه الموسيقى الدور الأساسي في لإنعاش الحركة الموسيقية وتشجيع الموسيقيين على الإبداع في العزف والأداء منذ القدم ، وكل هذا معروف ومعهود به في الشرق والغرب على السواء ، ولكن الغريب موجود في التباين المحسوس بين المدارس الثلاث : مدرسة تلمسان والجزائر من جهة ومدرسة قسنطينة من جهة أخرى.

فالفرق بينهما يكمن كشفه هو الاختلاف في الإيقاع والطرب بمختلف الجهات الجزائرية ، فنلاحظ فرقا كبيرا بين موسيقى تلمسان وموسيقى الجزائر وقسنطينة في نفس الطبع مع أن عنصر الإلهام واحد .

والسرفي ذلك هو أن المطربين الذين نقلوا هذا الفن لم تكن لهم ذاكرة واحدة وذوق واحد ولربما كان لهم ميل خاص وثقافة خاصة .

أضف إلى ذلك أن النسيان قد ابتلى كثيرا من القطع التي ذهبت مع أناسها وهؤلاء الذين كانوا يختلفون عليها ويبخلون على غيرهم بها فلا يدعون للعلم والفن أن ينتشر وينطلق من جيل إلى جيل آخر ، وابتليت الموسيقى الأندلسية الجزائرية بلاء لا مثيل له زيادة على النسيان الذي اعتراها قبل بلوغها هذا العصر الذي نحن فيه .

فالبرغم من ذلك تبقى الموسيقى الأندلسية مع اختلاف مدارسها يتداولها مغنون مختلفون بالعزف والغناء ، ومن أكبر الموسيقيين المشهورين في هذا الفن الذين حافظوا على هذا التراث الأندلسي القديم نجد : محمد بن التفاحي ، والشيخ رضوان بن صاري والشيخ

العربي بن صاري عميد الموسيقى الأندلسية الغرناطية، عبد الرزاق فخارجي، محيي الدين باشطارزي، عبد الكريم دالي، دحمان بن عاشور، الشيخة طيطمة، فضيلة دزيرية، الحاج غفور، محمد خازنجي، صادق البجاوي، سيد أحمد سيري، محمد سفينجة، مولاي أحمد بن قريزي²⁵.

الهوامش :

*الموسيقى الأندلسية : مصطلح يطلق على الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربي بقسميه الدنيوي والديني المتصل بمذاهب الطرق الصوفية ، نشأ بالأندلس وارتبطت في بعض الأحيان بالمذاهب ، وهو لا يتقيد في الصياغة بالأوزان والقوافي ولم يمتد هذا اللون إلى مصر وبلاد الشام ، لكنه استقر ببلاد المغرب العربي .
1- عبد العزيز بن عبد الجليل . الموسيقى الأندلسية المغربية . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1988 ، ص15 .

2-Mokhtar Hadj Slimane. **La musique Andalousse a Tlemcen.**

Edition ibn khaldoun , Tlemcen, 2001, p10 .

3-Ibid . p10 .

Mohmoud guettat . **la musique classique du marghreb.** Edition.4
sindbad 1et 3 rue feutrier ,paris , 1989 , pp96-97 .

5-Mahmoud guettat . **Op, cit** , p98

6-هنري جورج فادمر . تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر. ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ ، ص-273 274 .

7- عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق خليل جبران المنصور ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1998 ، ص 54 .
8-ابن أبي زرع . روضة القرطاس . دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 ، ص-238 239 .

9 - سالم السيد عبد العزيز . المغرب الكبير « العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية» . ج2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 117 .
10- هنري جورج فادمر . المرجع السابق ، ص275-276 .

11 - أحمد سفطي . دراسات في الموسيقى الجزائرية . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988 ، ص299 .

12- ابن باجة : هي الكنية التي عرف بها أبو بكر محمد بن يحيى بن الصايغ ، ولد في سرقسطة في نهاية القرن الحادي عشر ومارس مهنة الطب في مسقط رأسه ، سكن

اشبيلية وكسافيتا بعد سقوط سرقسطة بيد المسيحيين في العام 1118م ، ثم نزح إلى مراكش حيث استوزر في بلاط المرwanيين وهنا دس له السم بتحريض من عدو له كان كاتباً مكثراً وصلنا ما لا يقل عن أربعة وعشرين مصنفاً من مصنفاته في الطب والفلسفة وعلوم الطبيعة ، وإلى جانب مواهبه النادرة تلك كان متقناً لصناعة الموسيقى يجيد اللعب بالعود . أنظر: هنري جورج فادمر: المرجع السابق ، ص 38 .
13- صالح المهدي . كتاب الموسيقى العربية تاريخها وأدبها . الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1979 ، ص 140 .

14- الحاج محمد بن رمضان . باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان «عاصمة دولة بني زيان» . ط 1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 130 .
15-la poésie et la musique . Tlemcen collection art et culture, decembre 1971,p49-50.

16 - أحمد سفطي ، المرجع السابق ، ص 07

17- أحمد سفطي ، المرجع السابق ، ص 279 .

18- سيد أحمد سري . الطرب الأندلسي « مجموعة أشعار وأزجال موسيقى الصنعة » . ط 2 ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2002 ، ص 13 .
19- أحمد سفطي ، المرجع السابق ، ص 07 .

20- La musique et la poésie du sud d'Al-Andalus . Reales Alcazazas de séville , 05 avril- 15 juillet 1995, p50 .

21- سيد أحمد سري . المرجع السابق ، ص 17-18

22- ديوان أحمد ابن التريكي . جمع وتحقيق عبد الحق زريوح ، نشر ابن خلدون ، تلمسان ، الجزائر ، 1995 ص 29-38 .

23- جورج فرح . تمارين موسيقية لآلة العود . ج 3 ، منشورات مكتبة الحياض ، بيروت ، لبنان ، بدون سنة ، ص 77 .

24- Maya saidani. La musique du constantinois. Edition casbah , Algérie, 2006, p154.

25-Ahmed et mohamed Elhabib Hachelaf . Anthologie de la musique Arabe (1906 – 1960) . éditions anep , 2001, pp 180-181.